﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف: 32 - 34]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من وصْفِ الفريقَيْن إلى التَّمثيلِ بهما

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ حالَ الفريقَيْن من أهل النّارِ وأهلِ الجنَّة في الدّنيا والآخرة، ناسبَ أن يَذكرَ مَثَلًا يَستوعبُ الفريقَيْن، فكان ذِكْرُ ضَرْبِ مَثَلِ الرّجلَيْن مناسبًا للفريقَيْن؛ لبيانِ الحالِ في الدُّنيا قبل أن ينقلبَ الإنسانُ على وجهه فيخسرَ الدُّنيا والآخرة، فهو انتقالٌ منَ الحديث عن واقع أهلِ الجنّةِ وأهلِ النّار في الدّنيا والآخرة، إلى التّمثيلِ بهما؛ ليقعَ الاعتبارُ وتقوى الفطنةُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا﴾: من دلالات الأصل (حفف) الإحاطة، وطواف الشيء بالشيء[1]؛ يُقال: حَفَوْا به واحْتَفَوْا، أي: أطافوا، وهم حافّون به، وقوله ﷺ: "حُفَّت الجنَّة بالمكاره، وحُفَّتِ النّار بالشَّهَوات"[2]؛ أيْ: أُحيطت الجنّةُ بما يكرهُه الإنسانُ، وأُحيطت النّارُ بما تميلُ إليه النّفسُ، وما تجنحُ إليه منَ الشّهوات، وقولُه هنا: ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾[3]، وقولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الزُّمر: 75]؛ أيْ: مُطيفين بِحافَّتَيْهِ؛ أيْ: جانبيْه[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حفف).
(2) مسلم، صحيح مسلم، باب: حُفّت الجنّة بالمكاره، الحديث رقم: (7232).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حفف).
(4) الرّاغب، المُفرَدات: (حفف).

2) ﴿أُكُلَهَا﴾: الأُكُل بالضَّم يعني الثَّمرة، وقولُه تعالى هنا: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾؛ أيْ: ثمرتها، وقولُه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرّعد: 35]؛ يعني: ثمرتها، وقولُه: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [الرّعد: 4]، ونظائرُها في سورة سبأ وإبراهيم[1]، والأُكُلُ ثَمَرُ النّخل والشّجرِ، وكلُّ مأكولٍ أُكُلٌ؛ ومنه قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: 35][2].

3) ﴿ثَمَرٌ﴾: الثَّمَرُ اسمٌ لكلّ ما يُتطَعَّمُ من أحمالِ الشّجرِ، والواحدةُ: ثَمَرَةٌ، والجمعُ: ثِمارٌ وثَمَراتٌ، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 22]، وقولِه: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ [النّحل: 67]، وقولِه: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 99]، وقولِه: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الرّعد: 3]، والثَّمَرُ قيل: هو الثِّمارُ، وقيل: هو جَمعُه، ويُكنَّى به عن المال المُستفادِ، وعلى ذلك حملَ ابنُ عباس: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾، ويُقال: ثَمَّرَ اللّه مالَه، ويُقال لكلّ نفع يصدر عن شيء: ثَمَرَةٌ؛ كقولك: ثمرةُ العِلْمِ العملُ الصّالحُ، وثمرةُ العملِ الصّالح الجنّةُ[3]، الثَّمرُ: حملُ الشَّجر، والثَّمَرُ: أنواعُ المالِ، والولَدُ ثَمَرةُ القَلْبِ، وأثْمَرَتِ الشّجرةُ[4].

4) ﴿يُحَاوِرُهُۥ﴾: من دلالات الأصل (حور) الدّوران والإياب والتّردّدُ[5]، إمّا بالذّات وإمّا بالفكر، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾ [الانشقاق: 14]؛ أيْ: لن يُبعثَ، وحارَ الماءُ في الغدير: تردّدَ فيه، وحارَ في أمره: تحيّرَ، ومنه: المِحْورُ للعود الذي تجري عليه البَكرةُ لتردّده، والقومُ في حَوْرٍ؛ أيْ: في تردّدٍ إلى نقصان، والمُحاورَةُ والحِوارُ: المرادّةُ في الكلام، ومنه التَّحاوُرُ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: 1][6]، وحاورَه محاورةً وحوارًا جاوبَه وجادلَه، وهذا هو المقصودُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: 37][7]، إذْ يتضمّنُ هذا القولُ قناعةً وتأكيدًا وحرصًا على الرّأي.

5) ﴿نَفَرًا﴾: (نفر) أصل صحيح يدلّ على تجافٍ وتباعد، والنَّفَر أيضًا مِنْ قياسِ

(1) الدّامغانيّ، قاموس القرآن: (أكل).
(2) أبو بكر الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أكل).
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (ثمر).
(4) الخليل، العين: (ثمر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حور).
(6) الرّاغب، المُفرَدات: (حور).
(7) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (حار).

الباب لأنَّهم يَنْفِرونَ لِلنُّصْرَةِ[1]؛ والنَّفَرُ: منَ الثّلاثة إلى العشرة، يُقال: هؤلاءِ عشرةُ نَفَر؛ أيْ: عشرةُ رجال، ولا يُقال: عشرون نفرًا، ولا ما فوقَ العَشَرة، وهؤلاء نَفَرُك؛ أيْ: رَهْطُك الذّين أنتَ منهم، والنَّفرُ النَّفيرُ، والجماعةُ: أَنفارٌ، وهمُ الذّين إذا حَزَبَهُم أمرٌ اجتمعوا ونفروا إلى عدوّهم[2]، ويُقال: (ونفرنا خُلوف)؛ أَيْ: جماعتنا ورجالنا مسافرون، والخُلوف: الَّذين غابَ رِجالهم عَن نِسائِهِم[3]، وقوله في الآية: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾؛ يعني: الأنصارَ والخَدَم[4].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الدُّنيا مَثَلٌ مبسوطٌ واعتبارٌ منظورٌ لأهلِ النَّظرِ المبسوطِ والتَّأمُّلِ المنظورِ

الخطابُ للرَّسول ﷺ في أن يضربَ مثلًا لقومه؛ للمؤمنين منهم والكافرين؛ أيْ: واضربْ لهم مثلًا من حيثيّةِ العصيانِ مع النّعمةِ، والطّاعةِ مع الفقر، حالَ رَجُلَيْن: جعلْنا للكافر منهما جنَّتَيْن، اشتملتا على خيراتٍ عظيمةٍ منَ الأعناب، وأحاطَهما بنخلٍ فزادهما بهجةً وفائدةً، وجعلنا بين أشجارهما زَرعًا، وبذلك تكونُ الجَنَّتان جامعتَيْن للأقوات والفواكه، مُشتملَتَيْن على ما من شأنِه أن يشرحَ الصَّدرَ نفعًا وسرورًا، ثم بيّنَ أنّ كلَّ واحدةٍ منَ الجنّتَيْن ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ من أصناف الثّمارِ والزّروعِ ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ أيْ: ولم تنتقصْ من هذا المأكولِ شيئًا في سائر السِّنين؛ بل كان أكلُ كلِّ واحدةٍ منهما وافيًا كثيرًا، ثمّ ضمنَ اللّه لهُما وجودَ الماء ودوامَه لغرضِ الرَّيِّ وجودةِ المَنْظر؛ فقال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَلَهُمَا نَهَرًا﴾؛ ليصلَ ماءُ النّهر إلى كلِّ أشجارها وزروعِها، ثمّ بيّن سبحانه أنّ صاحبَ هاتَيْن الجنّتَيْن كانت له أموالٌ أخرى غيرُهما فقال: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾؛ أيْ: أموالٌ كثيرةٌ منَ الذّهب والفضّة والحيوانِ وغيرِ ذلك، وقولُه: ﴿فَقَالَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفر).
(2) الخليل، العين: (نفر).
(3) عياض، مشارق الأنوار: (نفر).
(4) السّيوطيّ، مُعتَرَك الأقران: 3/ 323.

لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾؛ أيْ: فقال صاحبُ الجنَّتيْن لصاحبه المؤمنِ الشّاكرِ: أنا أكثرُ منك مالًا وأعزُّ منك عشيرةً وحَشَمًا وأعوانًا، وهذا شأنُ مَن غمرتْهم شهواتُ الدُّنيا وزينتُها بَطَرًا وفسادًا في الأرض[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قولِه تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾:

أحوالُ النّاسِ في الدّنيا

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾؛ إمّا أن تكون واو عطْفٍ على جملةِ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ فإنّه بعدَ بيانِ ما أعدّ اللّه تعالى لأهل الشّرك منَ العذاب، وذكْرِ ما يقابلُه ممّا أعدّه للّذين آمنوا منَ الثّواب، ضربَ مثلًا لحال الفريقيْن بمثل قصّةٍ أظهرَ اللّه فيها تأييدَه ومدْحَه للمؤمن، وإهانتَه وعقابَه للكافر[2]، وهي قريبةٌ من عطْفِ القصَّة على القصَّة.

وإمّا أن تكونَ واو الاستئناف[3]؛ فلا علاقةَ لِما بعدَها بما قبْلَها، فلمّا انتهى من وصْفِ أحوال أهلِ النّارِ وأحوال أهلِ الجنّة انتقل لضربِ مثالٍ أرضيٍّ دُنيويٍّ، وبيانِ أحوالِ النّاس في الدّنيا بين مؤمنٍ شاكرٍ لنِعَم اللّه، وكافرٍ مُنكرٍ لها.

غرضُ فعْلِ الأمرِ ﴿وَٱضْرِبْ﴾:

بيانٌ منهجيْن متناقضَيْن في الحياة للبيانِ والتّوضيحِ

خرج الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ إلى معنى التّبْيين والتّوضيح للفريقيْن منَ المُشركين والمؤمنين بمَثَلِ رجليْن كان حالُ أحدِهما مُعجبًا مؤنِقًا، وحالُ الآخر بخلاف ذلك؛ فكانت عاقبةُ صاحبِ الحالِ المؤنقةِ تَبابًا وخسارةً، وكانت عاقبةُ الآخر نجاحًا؛ ليظهرَ للفريقيْن ما يجرُّه الغرورُ والإعجابُ إلى صاحبه منَ المهالك،

(1) طنطاويّ، الوسيط، ص: 2714.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 315.
(3) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 182.

وما يلقاه المؤمنُ الحصيفُ العارفُ بسُنن الله منَ التّذكير والتّدبّرِ في العواقبِ، فيكونُ مُعرّضًا للصّلاح والنّجاحِ[1].

نُكتةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ ﴿لَهُم﴾:

العنايةُ بالمُعاصِرين لنزولِ الخطابِ

قُدّمَ ﴿لَهُم﴾ على المفعولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا﴾؛ ليدلَّ على الاهتمامِ بالمَعْنيّين بهذا المثلِ، وهم مَنْ ذُكر سابقًا بخطاب النّبيّ مبتدئًا من قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾، فاهتمَّ بهؤلاء الذين عاصروا التّنزيلَ بهذا الخطاب، ثُمّ صار المثلُ سائرًا على جميع مَن كان حالُه كحالِ أحدِ الرّجلَيْن.

تعيينُ مَرجعِ الضّميرِ في قوله تعالى: ﴿لَهُم﴾:

النّاسُ جميعًا مَعْنيّون ويدخلُ المذكورون في السّياق دخولًا أوّليًّا

الضّميرُ في قوله: ﴿لَهُم﴾ يحتملُ أن يكون عائدًا على المشركين من أهل مكّة المُتجبّرين الطّالبين منَ الرّسول ﷺ طردَ الضّعفاءِ المؤمنين، فمثلُ الرّجلِ الكافر بإزاء المتجبّرين، والرّجلِ المؤمن بإزاء ضعفاءِ المؤمنين، وظهر بضرب هذا المثلِ الرّبطُ بين هذه الآية والتي قبلها؛ إذ كان مَن أشركَ إنّما افتخرَ بماله وأنصارِه، وهذا قد يزولُ فيصيرُ الغنيّ فقيرًا، وإنّما المفاخرةُ بطاعة الله تعالى، والتّقديرُ: (واضربْ لهم مثلًا قصّةَ رجُلَيْن)[2]، فبيّنَ أنّ النّاس ينقسمون إلى قُسطاطَيْن؛ الأوّل: مؤمن، والثّاني: غافلٌ كافرٌ معاندٌ، فمجموع هؤلاء قال فيهم هُنا: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾؛ أيْ: لهؤلاء جميعًا؛ مؤمنِهم وكافرِهم، فهو قد شملَهم كُلَّهم لضرورة أن يسمعَ هذا المَثَلَ كلُّ واحد، فيكونَ الضّربُ وحيًا ممّا أوحاه الله تعالى؛ ليتعبّدَ به النّاسُ منَ المؤمنين، وليعلمَ كلُّ واحدٍ منهم أين يكونُ مكانُه، وما هو مقامُه في هذا المَثَل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 315.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 173 - 174.

بلاغةُ التّمثيلِ بحال الرّجلين:

التّمثيلُ لبيانِ جمالِ المعاني وكمالِ الدّلالاتِ

المَثَلُ في اللّغة: الشَّبيهُ والنّظيرُ، وهو الكلامُ البليغُ المشتملُ على تشبيهٍ بديعٍ، وضَرْبُ المَثَلِ: إيرادُه، وعبَّرَ عن إيراده بالضّرب لكثرة تَكرار مثالِه، وشدَّةِ ما يحدثُ عنه منَ التّأثير في نفسِ السّامع[1]، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا﴾ إنْ كانَ حالُ هذيْن الرَّجُلين المُمثّلُ به حالًا معروفًا؛ فالكلامُ تمثيلُ حالٍ محسوسٍ بحالٍ محسوسٍ[2]، وإن كان حالُ الرّجلين حالًا مفروضًا؛ فالكلامُ على كلّ حالٍ تمثيلُ محسوسٍ بمحسوسٍ؛ لأنّ تلك الحالةَ مُتصوَّرةٌ مُتخيَّلةٌ، فهذه الهيئةُ التي ذكرَها الله تعالى لا يكاد المرءُ يتخيَّلُ أجملَ منها في مكاسب النّاسِ[3].

نُكتةُ التّعبيرِ بالجَعْلِ دون الإنعامِ:

رزقُ الله تعالى مبنيٌّ على السُّننِ الكونيّةِ

معنَى ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا﴾: قدّرنا له أسبابَ ذلك، ومعنَى ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾: ألهمناه أن يجعلَ بينهما[4]، والجَعْلُ يُفيدُ قيامَ سُنّةٍ كونيّةٍ، فجعلَ الله تعالى هذه الزّروعَ تنمو على أفضلِ وجْهٍ وهي بهذا التّرتيبِ وعلى هذه الهيئةِ، فقال على التّرتيب: ﴿جَعَلۡنَا﴾ و﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا﴾ و﴿وَجَعَلۡنَا﴾؛ ليدلَّ على تلك السُّنَّةِ في الخَلْق، فأتى بالجَعْل لبيان معنى التَّصْيير، وأنَّ ما يكونُ للنّاس في الدُّنيا مُرتَهَنٌ بالسُّننِ الكونيَّة، لا باعتبارِ الدّينِ والإيمان.

غرضُ تقديمِ ﴿لِأَحَدِهِمَا﴾ على ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾:

مراعاةُ النَّظْمِ لفهمِ المخاطَبِ في عدمِ الالتباسِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لِأَحَدِهِمَا﴾ على المفعول في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ﴾ اختصاصًا له بملْك الجنّتيْن دون الآخر، وأفاد التّقديمُ تناسُبَ النّظم؛ إذ قدّمَ ﴿لِأَحَدِهِمَا﴾؛ وهو اللّفظُ الدّالُّ على الواحد، وأخّر ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾ الدّالَّ على اثنيْن، لصرْفِ الخاطرِ أن تكونَ الجنّتان للرّجليْن معًا.

(1) طنطاويّ، الوسيط، ص: 2713.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 316.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 515.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 317.

نُكتةُ اختيار لفظِ الجنّةِ دون البُستان:

التّنبيهُ على مِنَنِ الله تعالى على عبادِه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ اختيارَ لفظِ الجنَّةِ دون البستان في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ لفائدةِ وصْفِ تلك الجنةِ بصفاتٍ؛ منها كونُها كثيرةَ الشّجر والزّرعِ، وسُمّي البستانُ جنّةً لاستتارِ ما يَستترُ فيها بظلِّ الأشجار، وأصلُ الكلمة منَ السَّتر والتّغطيّةِ[1]؛ ففيه تنبيهٌ على عظيم المِنَنِ على صاحبها.

فائدةُ جمعِ الأعنابِ:

تنـوُّعُ أشجار الأعناب وبيانُ اتّساعِ الجنّة

جُمعتِ الأعنابُ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾؛ لبيان كثرتها والدّلالةِ على كثافتها بحيث لا يُرى فيها إلّا أشجارُ العنب، فضلًا عن دلالة الجمعِ على تنوّع أشجارِ الأعناب وثمارِها التي تُعرف بمئات الأصنافِ، وفيه امتنانٌ على صاحبِها، إذْ لا تكونُ الأعنابُ الكثيرةُ إلّا في البساتين الكبيرةِ.

بَلاغةُ استعمالِ ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا﴾ التّصويريّةُ:

احتضانُ الجنّتيْن بأشجارِ النّخيلِ

قولُه تعالى: ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ صفةٌ أخرى من صفات هاتيْن الجنّتيْن، فيها منَ الجمال والتّخييل؛ إذ جعلنا النَّخْلَ محيطًا بالجنَّتيْن، و(الحفافُ) جانبُ الشّيءِ، والأحفّةُ جمع؛ فمعنى قول القائل: (حفّ به القوم)؛ أيْ: صاروا في أحفَّتِه؛ وهي جوانبُه[2]، وقولُه: ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا﴾ بمعنى: وجعلنا ذلك لها من كلِّ جهةٍ[3]، فَصَوَّرتْ كلمةُ ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا﴾ تلك الإحاطةَ الكاملةَ للنّخل بالجنّتيْن، وكأنّ النّخلَ قدِ احتضنَ بتراصِّه وأنساقِه هاتيْن الجنّتيْن، وجعلَهما مثلَ قطعةٍ واحدةٍ مُحاطةٍ بالخير من كلِّ جانبٍ.

معنَى حرفِ الباء في قوله تعالى: ﴿بِنَخْلٍ﴾:

جاءتِ الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِنَخْلٍ﴾ للإلصاق، فدلّ التّعبيرُ على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 515.

جـمـالُ المنـظـرِ واستثمارُ الأرضِ

أنّ النّخل قد أُلصقت بحافّات الجنّتين وكأنّها قد رَسمت حدودَها تمامًا؛ وذلك لبيان جمال المشهدِ وروعتِه فيهما، و(حفّ) مُتعدٍّ إلى مفعولٍ واحدٍ فتزيدُه الباء مفعولًا ثانيًا، وهذه الصّفةُ ممّا يؤثِرُها المزارعون في مزارعِهم، وهي أن يجعلوها محفوفةً بالأشجار المُثْمِرةِ لفوائدَ هي: الإنتاجُ، والحفظُ، وحُسْنُ المنظر[1].

نُكتةُ استعمال (النّخلِ) دون (النّخيل):

النّخلُ أعمُّ منَ النّخيل، وهو المقصودُ في السّياق

لفظُ (النّخل) يدلُّ على الأكثرِ من (النّخيل)، وذلك أنّ النّخلَ اسمُ جنسٍ جمعيٍّ، والنّخيلُ جمع، واسمُ الجنس أشملُ وأعمُّ منَ الجمع، ذلك أنّ اسمَ الجنس يشملُ المفردَ والمثنّى والجمعَ، ويقعُ على القليل والكثير، ويشملُ النَّخْلَ المُثْمِرَ وغيرَ المُثمر؛ فأفاد اسمُ الجنس هنا العمومَ.

فائدةُ استعمال ﴿جَعَلْنَا﴾ دون مرادفاتِها:

التّمايزُ بين أصنافِ الشّجرِ والزّرعِ

في الآية الكريمة ذُكر الجَعْلُ للجنّتيْن والزّرع، بينما جُعِلَ الحَفُّ في ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا﴾ للنّخل، وفائدةُ ذلك أنّ (الحَفّ) بالنّخل يمكنُ أن يكونَ أو لا يكون، فهي للزّينة ولرسْم حدودِ الجنّتيْن، فضلًا عن كون النّخل مُثْمِرًا، بينما (الجَعْل) للجنّتيْن قد شملَ الأعنابَ؛ فهي أهمُّ أنواعِ الأشجار والثّمار في الجنّاتِ، فقال: ﴿جَعَلْنَا﴾ لأهمّيَّتِه وضرورتِه، أمّا الزّرعُ فيحتاجُ إلى (جعل) آخرَ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾؛ لأنّه ليس من أصول ما يُزرعُ في الجنة؛ فميّزه عن أشجار الأعناب.

فقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ المقصودُ منه أمورٌ: **أوّلُها**: أن تكونَ تلك الأرضُ جامعةً للأقوات والفواكه، **وثانيها**: أنّ مثلَ هذه الأرض تأتي في كلّ وقت بمنفعة أخرى وهي ثمرةٌ أخرى، فكانت منافعُها دارّةً متواصلةً[2]، فيكونُ الجَعْلُ للدّلالة على سُنَّةٍ وقانونٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.

في الزّراعة يقدّمُ أمثلَ الحالاتِ الزّراعيّةِ والبيئاتِ المناسبةِ، فقدّمَ بينهما لاختصاصِ المكان بأفضلِ الحالات والبيئاتِ الزّراعيّة، وبذلك فإنّ (الجَعْل) يكونُ لِما هو ضروريٌّ تُستثمرُ فيه أرضُ الجنّات، والحفَّ لِما فيه من تزيينٍ وتصويرٍ جميلٍ لها.

نُكتةُ تقديمِ ﴿بَيْنَهُمَا﴾ على ﴿زَرْعًا﴾:

أُقيمتِ الجنَّةُ على نظامٍ هندسيٍّ بديعٍ

قُدّمَ النَّظمُ الكريمُ قيدَ ﴿بَيْنَهُمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ على المفعولِ؛ لبيانِ المكانِ الأفضلِ للزّروع، وهو ما يكونُ بين الأشجار قريبًا من مجاري المياه، فقد قال بعدها: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ الجنّةَ أُقيمت على نظامٍ هندسيٍّ مَكينٍ، وهو ما يعكسُ جمالَ هذه الجنَّةِ التي بسببِها ضلَّ صاحبُها، وأُغرقَ في الملذّاتِ.

دلالةُ إسنادِ الأفعالِ إلى الله تعالى:

بيانُ قوانينِ الزّراعةِ والاستثمارِ في الأرض

لمّا قال تعالى في الأولى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾؛ أتمّ ذلك الجَعْلَ بقوله: ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾؛ فتكونُ الصّورةُ الأولى قد تمّت؛ وهي واحدةٌ من سُنن الطَّبيعة في إنشاء الجِنان، ثمّ أضاف قانونًا زراعيًّا آخرَ بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾، فكلّما أوردَ بيانَ قانونٍ في الخلق ليدُلَّ على سُنَّة كونيّةٍ في خلقه وتقديره قال: ﴿جَعَلْنَا﴾، فالقانونُ الأوّل هو: أن تكونَ الجنَّةُ من أعنابٍ محفوفةٍ بنخل، فأفرد لها ﴿جَعَلْنَا﴾؛ ثمّ قدّمَ قانونًا آخر؛ وهو: أسلوبُ استثمارِ الأرض التي بين الأشجار؛ لتكونَ الجنّتان على أمثل حالةٍ، فأفرد لها ﴿وَجَعَلْنَا﴾ الثّانيةَ؛ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

بلاغةُ التَّرتيبِ بذكر الأعنابِ فالنّخلِ فالزّرعِ:

جاء التّرتيبُ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾؛ بذِكْرِ الأعنابِ؛ لأنّ أصنافَها لا تكاد تُحصرُ؛ حتى إنّه

في الأصل الواحدِ يحصلُ تنوُّعُ الثّمرة ولذلك جمعَها[1]، إذ يُقدَّرُ وجودُ ما يقاربُ عشرةَ آلاف نوعٍ منه، ولأنّ أشجارَ الأعناب أسرعُ نموًّا وإثمارًا منَ النّخل، ثمّ ارتقَى إلى ذِكْر النّخلِ فقال: ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾، وأعدادُ أصنافِها يتجاوزُ ألفَيْ صنفٍ، وأفرد الزّرعَ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾؛ لأنّه تصلحُ معه الدّوراتُ الزّراعيّةُ، فيُزرعُ في كلّ موسم أنواعٌ منها، فيكونُ مختلطًا في أنواعِه وثمارِه وأوقاتِه، ويتنوّعُ ذلك كلُّه خلالَ العامِ الواحدِ.

ترتيبُ النّظمِ بحسبِ نظامِ الزّراعةِ للأشجارِ وأصنافِ النّباتِ

التّوكيدُ باستعمال ﴿كِلْتَا﴾:

مجيءُ ﴿كِلْتَا﴾ اسمًا مفردًا أُكِّد به مؤنَّثان مُعرَّفتان، وقولُه: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ حملٌ على اللّفظ؛ لأنّ ﴿كِلْتَا﴾ لفظُه لفظٌ مفردٌ، ولو قيل (آتتا) على المعنَى لجازَ[2].

الجنّتان في حالةٍ أمثليّةٍ وتطابُقٍ في الأوصافِ

دلالةُ التّعريفِ في ﴿ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾:

التّعريفُ في قوله: ﴿ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ للتّعظيمِ والتّفخيم، فهما جنّتان عظيمتان بما احتوت من صفاتٍ؛ لذلك فقد أتبعَها بعدَها بقوله تعالى: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ فهذه هي الحالةُ المُثلَى لهما، فقد وفّتِ الجنّتان بما هو مرجوٌّ منهما عند صاحبِهما.

بلغتِ الجنّتان في الوصْفِ الحالةَ المُثلَى

فائدةُ المجازِ العقليِّ بإسناد الإيتاءِ إلى الجنّتيْن:

إسنادُ الإيتاء إلى الجنّتيْن من قَبيلِ الإسنادِ المجازيِّ، فـ (الإيتاء) هو إيتاءُ الشّجرِ والزّرعِ الذي فيها، وليس إيتاءَ الجنّتيْن نفسيْهما، وهذا مجازٌ عقليٌّ علاقتُه المكانيّةُ لفائدةِ بيانِ أنّ هذا الأسلوبَ في الزّرع يكون له الأثرُ الكبيرُ في تحقيق أعظمِ إنتاجٍ، وفي ذلك دلالةٌ أيضًا على أنّ الأفضالَ ليست أفضالَ صاحبِ الجنّتيْن، وإنّما هي من أقدارِ الله تعالى فيما أكنَّه في هذه النّباتاتِ والأشجارِ من عظيم

بيانُ خصْبِ الجنّتيْن وأثرِ ذلك في الوفرةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 124.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.

الأسرارِ في الخَلْق والإنباتِ والإثمار؛ فهي جميعُها من أفضالِ الله على عباده.

بلاغةُ الإطنابِ وفائدتُهُ:

وصْفُ كمالِ الجنَّتَيْن في الإنتاج

وجملةُ ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ مُعترضةٌ بين الجُمَل المُتعاطفةِ؛ والمعنى: أثمرتِ الجنَّتان إثمارًا كثيرًا[1]؛ فهي من قَبيلِ الإطناب في الوصْف والتّبْيين لحال الجنّتيْن، وفائدتُها بيانُ ما اتّصفت به الجنّتان منَ الكمال في الإنتاج، وبلوغِ أرقى ما يمكنُ أن يصلَه المحصولُ فيها.

براعةُ استعمالِ مفردةِ (الأُكُل) دونَ (الثمار):

ثمارُ الجنَّتيْن كلُّها يُنتفعُ بها دون هَدْرٍ أو تلَفٍ

استعملَ النَّظمُ مفردةَ ﴿أُكُلَهَا﴾ دون (ثمارها)؛ ليدلَّ على أنّ الثّمارَ هي بكاملِ الصّلاحيةِ للأكل، بينما هي في أشجارِها ومكنونِها في زرعِها ونباتِها، فثمارُ الأشجارِ تُقطفُ وتُؤكلُ، وهذا من كمال جودةِ إنتاجِها، ولو قال: (ثمارها)؛ لَما أفاد هذا المعنى؛ بل أفاد معنًى آخرَ وهو أنَّ الجنَّةَ تُنبتُ الثِّمارَ، وقد يُصيبُها مرضٌ أو جائحةٌ، فلا يُنتفعُ بها.

فائدةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم﴾:

التّعريضُ بصاحب الجنَّتيْن الذي ظلمَ نفسَه بالكُفرِ بأنعُمِ الله

في قولِه تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ "استُعيرَ الظُّلمُ للنَّقص بتشبيهِ هيئةِ صاحبِ الجنَّتيْن في إتقان خَبْرِهما وترقُّبِ إثمارِهما بهيئةِ مَن صار له حقٌّ في وفرةِ غَلَّتها بحيث إذا لم تَأتِ الجنَّتان بما هو مُترَقَّبٌ منهما، أشبَهتا مَن حَرمَ ذا حقٍّ حقَّه فظَلَمَه، فاستُعيرَ الظّلمُ لإقلالِ الإغلال، واستُعيرَ نفيُه للوفاءِ بحقِّ الإثمار"[2]، وتكمنُ فائدةُ الاستعارةِ في التَّعريضِ بصاحبِ الجنَّتيْن؛ إذ قد ظلَمَ نفسَه فكفَرَ بأنْعُمِ الله تعالى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 318.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 318.

نُكتةُ الإيجازِ بالحذفِ:

صاحبُ الجنَّتَيْن رُزِقَ ما رجاه؛ لكنَّه كفرَ حقَّ مَن رجاه

معنى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ أي لم تَنقُصْ من أُكُلها شَيئًا؛ أي لم تنقصْه عن مقدار ما تُعطيه الأشجارُ في حال الخِصبِ، ففي الكلام إيجازٌ بحذفِ مضافٍ، والتّقديرُ: (ولم تظْلِم من مقدارِ أمثالِه[1]، أو ممّا يُتوقّعُ منها، أو ممّا يُرجَى منها شيئًا)، ففيه نُكتةٌ، وهي أنَّ صاحبَ الجنَّتين رُزِق بما رجاه منها، فهو يرى أنَّها لم تُنقصْ شيئًا منَ المقدار الذي توقّعَه ورجاه، وهذا في غاية المدحِ للجنَّةِ، وغايةِ الذَّمِّ لمَن كفرَ بها.

غرضُ تنكيرِ ﴿شَيْـًٔا﴾:

أفادَ التَّنكيرُ للفظِ شيءٍ في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ التّقليلَ والتّحقيرَ، فهي لم تُنقصْ أقلَّ ما يُتوقّعُ في العادةِ من مثيلاتِها.

بَلاغةُ الكنايةِ في: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾:

ثمارُ الجنَّةِ كاملةٌ تامَّةٌ خاليةٌ منَ التَّلفِ والعيبِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ كنايةٌ عن أمثلِ إنتاجٍ، فلا يكونُ أفضلَ وأمثلَ منه؛ إذ لم يطرأ عليها أيُّ سلْبٍ أو نقْصٍ، وعدمُ إصابتِها بأوبئةٍ أو أمراضٍ قد تؤدّي إلى تلَفِ أجزاءٍ منَ الثّمار، وهذه الكنايةُ أبلغُ منَ الوصف المباشرِ لحالِ الثّمار في الإنتاجِ.

بلاغةُ الإطنابِ بالاحتراس:

لا نقصَ يُذكرُ في عطاءِ الجنّتين

بعد أنْ ذكرَ الجنّتين المُتكاملتَين جمالًا وعطاءً، وما تبثُّه في نفوس النّاظرين منَ البهجة والسّرور؛ احترسَ بقوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ من أن يكون ثمَّةَ نقصٌ في الأكل الذي آتتْه، فلا يُتبادرُ إلى الذّهن نقصٌ طارئٌ عليها غيرُ منظورٍ.

وجْهُ إسنادِ تفجيرِ الأنهارِ لله تعالى، بعد إسنادِ (الإيتاء) للجنّتَين:

بعد أن أسندَ الإيتاءَ للجنّتين، وهو إيتاءُ الشّجر والنّبات فيها بما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 318.

خطابُ النَّظْمِ لِما يَجولُ في الأذهانِ ولِما استقرَّ في الحُسبانِ

أودعَه اللّه تعالى منَ القُدرةِ على إخراج الثّمرِ؛ بحسبِ نواميسِ حياةِ النّباتِ والإنتاجِ في تنوّع ثمارِها، قال هُنا ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾، فجاءَ الإسنادُ للّه تعالى، وذلك لأنّ تفجيرَ الأنهار منَ الأمورِ التي يراها النّاسُ عظيمةً، ولا يَنسبون فضْلَها لأنفُسِهم أو لحُسنِ عملِهم، بخلافِ ما يَنسبونَه لأنفسِهم من حُسنِ الزّراعةِ، وبراعةِ التّجارة، والقُدرةِ على كسبِ الرِّزقِ، فإنَّ إسنادَ الإنسانِ الفضلَ لنفسِه فيها أوضحُ، كذلك يصنعُ الإنسانُ في أن يَنسبَ حُسنَ الإثمارِ للأرضِ والنّبتِ التي خرج فيها، فالاختلافُ في الإسنادِ باعتبارِ ما يجولُ في خواطرِ الإنسانِ.

نُكتةُ المبالغةِ في صيغةِ التّفجير؛ والنَّهرُ واحدٌ:

امتدادُ النّهرِ وجريانُه خلالَ الجنّتَين وبين زروعِها

جاءت صيغةُ فعلِ تفجيرِ الأنهار في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾، بتشديد الجيم، وإنّما شدّدَ ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ وهو نهرٌ واحدٌ؛ لأنّ النّهر يمتدُّ؛ فكأنّ التّفجّرَ فيه كلِّه، وأعلمَ اللّه تعالى أنّ شربَهما كان من نهرٍ واحدٍ، وهو أغزرُ الشّربِ[1]، والظّاهرُ أنّ ماءَ النّهر كان يروي الجنّتين ممّا يدلُّ على غزارته، وقوّةِ تدفّقه، والتّشديدُ في قوله: ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ للمبالغة، والتّخفيفُ هو الأصلُ لأنّه نهرٌ واحدٌ والتّشديد على المبالغة لأنّ النّهر يمتدُّ فيكونُ كأنهارٍ[2].

نُكتةُ تقديمِ ﴿خِلَالَهُمَا﴾ على ﴿نَهَرًا﴾:

تصويرُ بلوغِ الماءِ إلى أصولِ الجنّتين وفروعِها

ومعنى ﴿خِلَالَهُمَا﴾؛ أيْ: وسطَهما وبينَهما، ومنه يُقال: خللتُ القومَ؛ أيْ: دخلتُ بين القوم[3]، دلَّ ﴿خِلَالَهُمَا﴾ على تشعّب فروعِ النَّهَر خلالَ الزّروع، فتخليلُ تشعُّباتِ النّهر بين أشجارها أمرٌ يحسُن الاهتمامُ به عند صاحب الجنّةِ؛ ليضمنَ وصولَ الماء إلى كلّ شجرةٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 174 - 175.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.

أو نباتٍ فيها، فقدّم ﴿خِلَلَهُمَا﴾ للاهتمام، كما أنّ قوله: ﴿خِلَلَهُمَا﴾ يدلُّ ضمنًا على غزارة مياه النّهر المُتفجِّر ودَيْمومتِها، فحسُن تقديمُ التّخليل للاهتمام بتحقُّقِ هذا الشّرطِ الأصيلِ في الزّراعة وغزارةِ الإنتاج، وأفادَ كذلك وصولَ الماء دونَ الحاجة إلى وسائلَ وأدواتٍ وكُلَفٍ إضافيّةٍ.

معنَى الواو ودلالتُها في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾:

عطاءُ الله تعالى لصاحبِ الجنَّتين تعدّاهما إلى أنواعِ الأموال

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ استئنافيّةٌ[1]؛ أيْ: أنواعٌ منَ المال، من ثمَّر مالَه؛ إذا كثر، وعن مجاهد: الذّهبُ والفضّةُ[2]؛ أيْ: كانت له إلى الجنَّتَيْن الموصوفتَيْن الأموالُ الدَّثِرةُ منَ الذَّهب والفضَّة وغيرِهما، وكان وافرَ اليسار من كلّ وجْهٍ، مُتمكِّنًا من عمارة الأرض كيف شاء[3]، فدلّ ذلك على الغِنَى في كلّ شيءٍ من متاعِ الدّنيا، كأنَّه قال: (وله فوق المذكورِ ذهبٌ وفضّةٌ).

توجيهُ القراءاتِ في ﴿ثَمَرٌ﴾:

(الثّمرُ) هو ما حملتِ الأشجارُ، ويُطلَق أيضًا على أنواعِ الأموال

قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾: قرأ عاصمٌ بفتح الثّاء والميم ﴿ثَمَرٌ﴾؛ وهو جمعُ (ثمار) أو (ثمرة)، وقرأ أبو عمرو بضمّ الثّاء وسكون الميم في الحرفيْن: ﴿ثُمُرٌ﴾، والباقون بضمّ الثّاء والميم في الحرفيْن ﴿ثُمُرٌ﴾[4]، وقد ذَكَر المعنى بالضّمِّ أنواعَ الأموال من الذّهب والفضّة وغيرِهما في المال والولدِ، وبالفتح: حَملُ الشَّجَرِ[5]، والقولان مُحتملان للَّفظِ عند المُفسِّرين، إلّا أنَّ ما يُقوّيه السّياقُ أن يكون للذَّهب والفضَّة.

توجيهُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿ثَمَرٌ﴾:

(الثّمر) مُشتقّ منِ اسمِ الثّمرة على سبيل الاستعارة؛ لأنّ الأرباحَ

(1) الصّافي، إعراب القرآن الكريم: 15/ 185.
(2) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/ 376.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 310.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.

وعفو المال يُشبهان ثَمَرَ الشّجر، وشاع هذا المجازُ حتى صار حقيقةً، قالَ النّابِغَةُ الذُّبيانيُّ:

مَهْلًا فِداءٌ لَكَ الأقْوامُ كُلُّهم *** وما أُثَمِّرُ مِن مالٍ ومِن ولَدِ[1]

بديعُ اختيارِ الألفاظِ وأثرُها في الإيجازِ:

الأكـــلُ نـتـاجُ الشَّجرِ، والثّمرُ نتاجُ الأكلِ

ناسبَ استعمالُ كلمةِ ﴿ثَمَرٌ﴾ مع قوله عنِ الجنّتين: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾؛ وهو ثمرُ الشّجر؛ فجاء بمفردة ﴿ثَمَرٌ﴾؛ للدّلالة على أنواع الأموال الأخرى؛ فجمع ثمرَ الشّجر وثمرَ الأموال، وعبَّر عن ثمرِ الشَّجرِ بالأكلِ لبيان تحقُّقِ الانتفاعِ بها، وعبَّر عنِ الأموال بالثَّمَر لبيان أنَّ أصلَ هذه الأموال هو ثمارُ الأشجار؛ فأفاد أنَّ حَمل الشّجرِ لم يتوقَّف نفعُه على الأكل؛ بل تعدّاه إلى أمرٍ آخرَ وهو التّجارةُ وتحصيلُ الأموالِ المتنوِّعةِ، وهذا من بديع اختيارِ الألفاظ الدّالَّةِ على معانٍ مُكتَنَزَةٍ.

فنُّ التّتميمِ في بيان حالِ الجنّتيْن:

تـكـامُـلُ حـالـةِ الجنّتيْن بأبهَى الصّورِ

بعدَ أن بيّنَ في قوله: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أنّ الجنّتيْن على نسقٍ معيّنٍ فيهما الأعنابُ والنّخيلُ، فقد تمَّمَ ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾؛ لئلّا يُتوهَّمَ أنّ الانتفاعَ قاصرٌ على النّخيل والأعنابِ، ولتكونَ كلٌّ منَ الجنّتيْن جامعةً للأقواتِ والفواكهِ، مُتواصلةَ العمارِ على الشّكلِ الحسنِ والتّرتيبِ الأنيقِ، ثمّ تمّمَ ذلك بقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ ليدلَّ على دَيْمومةِ الانتفاعِ بهما، فإنّ الماء هو سرُّ الحياة، وإذن فقدِ استكملَ هذا الرّجلُ كلَّ الملاذّ، واستوفى ضروبَ النِّعمِ ثمّ تمّمَ ذلك بقوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ لاستحضار الصّورةِ التّامّةِ للانتفاعِ بالمواردِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 318.

(2) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 184.

معنَى الفاءِ ودلالتُها في قوله: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾:

توقّعُ غرورِ مَن آتاه اللهُ مالًا وجاهًا

الفاءُ في قولِه: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ لتفريعِ جملةِ (قال) على الجُملِ السّابقةِ؛ لأنّ ما تضمّنتْه الجُمَلُ السّابقةُ من شأنِه أن ينشأَ عنه غرورٌ بالنّفس[1] لصاحبِ الجنّتيْن والأموالِ وعزّةِ النّفرِ، ففرّع هنا ذلك المُتوقَّعَ من صاحبِ الجنّتيْن، وهذا التَّوقُّعُ يوجبُ الحَذَرَ منَ الوقوعِ في مزالقِ الغرورِ والكِبْر.

نُكتةُ اختيارِ لفْظِ (الصّاحب):

الصُّحبةُ اشتراكُ الرَّجُلَيْن في امتلاكِ كلٍّ منهما جنَّةً

الصّاحبُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ بمعنى المُقارنِ في الذِّكر، حيث انتظمَهما خبرُ المثَل، أو أُريدَ به المُلابسُ المُخاصِمُ، والمُرادُ بـ(الصّاحب) هنا: الرّجلُ الآخرُ منَ الرَّجلَيْن؛ أيْ: فقال: مَن له جنَّتان في حوارٍ بينهما، ولم يتعلَّقِ الغرضُ بذِكْر مكانِ هذا القول ولا سببِه لعدم الاحتياجِ إليه في الموعظةِ[2]، ولعلّه اختارَ الصّاحبَ هنا لبيان القُرْب بين الرّجلَيْن منَ العلاقةِ الاجتماعيّةِ؛ كصداقةٍ، أو نسبٍ، أو اشتراكٍ في عملٍ متشابهٍ.

معنَى إضافةِ الصّاحبِ إلى الضّمير:

تحذيرُ المؤمنين من بعضِ أنواعِ الصُّحبةِ

في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أضافَ الصّاحبَ إلى الضّمير؛ لبيانِ حالةِ منَ التّواصُلِ بين الرّجل وصاحبِه، ممّا يقتضي تقارُبًا في الفهم وانسجامًا في الفكْر، لكنّه هنا أظهرَ فرقًا كبيرًا بينَهما؛ مُؤدّاه الانشغالُ بمُتَرَفات الدّنيا، وجعْلُها هي الأصلَ في تقييم الحياةِ والوجودِ من جانبِ أحدِهما، وقوّةِ الإيمان باللّه من الجانبِ الآخر، وبهذا التّبايُنِ يُبيِّنُ الفرقَ بينهما، وأنَّ المقصودَ بالصُّحبةِ صحبةُ المُحاورةِ والاشتراكِ في مهنةٍ واحدةٍ؛ ففي الإضافةِ تعريضٌ بمَنْ ينزلقُ وراءَ صاحبِه في كُفْرِه وجحودِه، وأنَّ الاشتراكَ في أمرٍ لا يعني

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 319.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 319.

بتاتًا الاشتراكَ في كلِّ شيءٍ، وأنَّ على الإنسانِ أن يَحْذرَ من صاحبِه في كثيرٍ منَ الأحيان.

بَلاغةُ جملةِ ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾:

عنادُ المُحاوِرِ في الكفرِ دليلٌ على سقوطِهِ في براثنِ الباطلِ

الواوُ حاليّةٌ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ والجملةُ حالٌ من ضميرِ ﴿فَقَالَ﴾، وهذه الجملةُ إطنابٌ دلّتْ على الحوارِ الذي استدعى الأدلَّةَ في كلّ مسألةٍ، والمحاورةُ مراجعةُ الكلام من قولِهم: حارَ؛ إذا رجعَ[1]، فقولُه: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ دليلٌ على تمكُّنِ الغرورِ والكفرِ لدى صاحبِ الجنّتيْن؛ لأنّه يعاودُ صاحبَه بالأدلّة على ما يعتقدُه من أنّ المالَ والثّراءَ هو الأصلُ في تَقْييم الحياةِ والوجودِ.

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليه:

التّعريضُ بالمُشركين في اغترارِهم بأموالِهم

قُدِّمَ المُسنَدُ إليه ﴿أَنَا﴾ على المُسنَدِ ﴿أَكْثَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا﴾؛ لإفادةِ معنى التّخصيصِ، وذلك لأنّ المُسنَدَ وهو الكثرةُ في المال هو أمرٌ حاصلٌ في الواقع، فقدّمَ ﴿أَنَا۠﴾ لتخصيص نفْسِه بالكثرة دونَ صاحبِه الذي يحاورُه، ويظهرُ من ذلك شدّةُ الإعجابِ بالنّفس، ففيه تعريضٌ بكفّارِ قريشٍ الذين كانوا مُعْجبين مغرورين بأنفسِهم، لمّا طلبوا منَ الرّسول ﷺ عدمَ مجالسةِ الفقراءِ منَ المؤمنين، فحالُه مع صاحبِه كحالِ المشركين مع المؤمنين.

براعةُ تقديمِ كثرةِ المالِ على عِزّةِ النّفَرِ:

تقديمُ الأصلِ الجالبِ للقوّةِ والمَنَعةِ وما تهواه الأنفسُ

في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ قدّمَ ذِكْرَ المال على الولد، فبدأ بالمال؛ لأنّه الأصلُ لدى مُعظمِ النّاس في الغرورِ، ثمّ ذكرَ عِزّةَ النّفرِ؛ والنّاسُ مجبولون على حبّ المالِ، والانصياعِ إلى أصحابه، فلولا عزّةُ المال لَما حقّقَ عزّةَ النّفر، فقدّمَ الأصلَ على التّابع، والولدُ بغير مالٍ عيلةٌ وشدّةُ فقْرٍ، وفي هذا المعنَى ما فيه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 107.

منَ التّعريض بأولئك الذين يتّبعون أهلَ الأموال بُغيةَ الكسب، دون النّظرِ إلى مواضعِ الحقّ والباطل.

فائدةُ تنكيرِ المال والنّفَرِ:

نُكِّر المالُ والنَّفرُ في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾؛ لإفادةِ التّكثيرِ والتّفخيم، فمالُه لا يُحصَى؛ لكثرةِ ما أوتيَ من أصنافِه، والنّاسُ تَبَعٌ له لعلْمِهم بما يملكُ منَ المال والجاه، طمعًا في أن يصيبَهم منه، فهم كثيرٌ لكثرة مالِه، ومَنْ كثُر أتباعُه عزَّ شأنُه بين النّاسِ.

مَنْ كثُر مالُه وأتباعُه عزّ شأنُه بين النّاسِ

بَلاغةُ الاكتفاءِ في ذِكْر ﴿مِنكَ﴾ في المال دونَ الولد:

جاء الاكتفاءُ في الآيةِ في ذِكْر قيْدِ ﴿مِنكَ﴾ في (المال) ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا﴾ دون (الولد) ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾؛ لِما للمال من دورٍ محوريٍّ، وطاقةٍ مؤكّدةٍ في جعل أصحابِ الأموال هم المُتحكِّمون في الأمور كلّها؛ الفرديّةِ والمجتمعيّةِ، وهذا على خلاف الولد؛ إذ لا يكونُ الولدُ دومًا طاقةً مضمونةً في القوّة والتّمكينِ.

المالُ طاقةٌ مضمونةٌ في القوّةِ والتّمكينِ

دلالةُ استعمالِ ﴿نَفَرًا﴾ دون (ولدًا):

قولُه: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾؛ يعني أنصارًا وحَشَمًا، وقيل: أولادًا ذكورًا، لأنّهم ينفرون معه دون الإناث[1]، فدلالة النّفر على الأتباع أبلغُ ممّا لو قال: (وأعزّ ولدًا) التي تدلُّ على القلّة، فالأتباعُ لا حصْرَ لهم ولا حدَّ، ثمّ إنّ اختيارَ الأتباع يكونُ منوطًا باختياره هو على قدرِ تأييدِهم ومُناصرتِهم، على خلاف الأولاد الذين قد يكونُ بعضُهم مخالفًا غيرَ مؤيّدٍ لأبيه فيما يأمرُ ويفعلُ.

كلُّ نفرٍ تابعٌ ومؤيِّدٌ، وليس كذلك كلُّ ولدٍ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(الجنّةُ) و(البستانُ):

الجنّةُ هي البستانُ الذي تجنُّه الأشجارُ[2]؛ وهي قطعةُ أرضٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 124.

تنْبتُ فيها الأشجارُ حتى تغطّيَها ففيها معنَى الاستتارِ[1]، و(جَنَّ) هو السَّتر والتّستّرُ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: 76]، والجنّةُ ما يصيرُ إليه المسلمون في الآخرة، وهو ثوابٌ مستورٌ عنهم اليومَ، والجنّةُ البستان، وهو ذاك؛ لأنّ الشّجرَ بورقِه يسترُ[2]، والبستانُ: كلُّ أرض يحوطُها حائطٌ، وفيها نخيلٌ مُتفرِّقةٌ وأشجارٌ، يمكنُ الزّراعةُ في وسط الأشجارِ؛ فهي بستانٌ، و(بستان) معرّبُ (بوستان)؛ وإن كانتِ الأشجارُ مُلتفَّةً، لا يمكنُ زراعةُ أرضِها؛ فهي كرمٌ[3].

الجنّةُ كثيفةُ الشّجرِ مُتداخلةُ الأغصانِ، والبستانُ أعمُّ منها

والفرقُ بين الجنّةِ والبستانِ أنّ الجنّةَ تكونُ كثيفةَ الشّجر متداخلةَ الأغصان، وهذه الصّفةُ تدلُّ على جودة الحالِ، وتوافُرِ العناصر والمياهِ، أمّا البستانُ فلا يُشترطُ ذلك فيها، فقد تكونُ أشجارُها مُتفرّقةً غيرَ متداخلةٍ على أغلبِ أحوالِها.

المُحاورةُ والمُجادلةُ:

المُجادلةُ هي المخاصمةُ فيما وقعَ فيه خلافٌ بين اثنيْن، والمخاصَمَةُ منازعةُ المخالفةِ بين اثنيْن على وجه الغلظةِ، وتختلفُ المخاصمةُ عنِ المُعاداة؛ بأنّ المخاصمةَ من قَبيل القولِ، والمُعاداةَ من أفعالِ القلوب[4]، أمّا المحاورةُ فهي المراجعةُ في الكلام[5]، من حارَ يحورُ إذا رجع، وقوله: سألتُه فما أحارَ كلمةً[6].

المُحاورةُ مراجعةُ الكلامِ، والمجادلةُ المخاصَمَةُ فيه

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح، ص: 180.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/ 421.
(3) الكَفَويّ، الكُلّيّات، ص: 227.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 488.
(5) حجازيّ، التّفسير الواضح، ص: 416.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29 : المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-26-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»